الأندرين، أندرونا القديمة

تعد الأندرين، أندرونا القديمة، من أكبر المواقع في مناطق البادية الشحيحة بالمياه في سورية الداخلية. وكانت أندرونا بمنزلتها كـ‹كُومي› (نموذج مستوطنة غير مؤكد التعريف، ربما قرية تشكل وِحدة سياسية) لا تحمل امتيازات ‹مدينة›، لكنها تتمتع إلى درجة ما بخواص المدنية، إذ كانت محاطة بسورَيْ تحصين وتتضمن عشر كنائس داخل السورَيْن وحصن كبير من نموذج ‹كاسترُن› (Kastron)، وكذلك حمام عام في مركز المستوطنة، إضافة إلى العديد من الأبنية السكنية التي تغطيها الرمال.

بدأ البحث العلمي في المستوطنة عام ١٩٩٧ من خلال التوثيق المساحي للموقع ودراسات شاملة للقى السطحية من قبل فريق ألماني. وقبل البدء بأعمال التنقيب عام ١٩٩٨ تم تنظيم التعاون الدولي لفريق سوري-بريطاني-ألماني: ركزت أعمال الفريق البريطاني تحت إشراف مارليا مَنْدِلْ مَنْغو على الكشف عن الحمام البيزنطي والتعرف على تصميم نظام الري في أندرونا، في حين أن الفريق السوري الذي كان بادئ الأمر تحت إدارة عبد الرزاق زقزوق ومن ثم راضي عقدة أظهر إلى حيز الوجود منشأة حمام تقع وسط الموقع وتعود إلى فجر العصر الإسلامي. أما أشغال الفريق الألماني بإدارة كرِستيانه شتروبه فقد ركزت على الحصن (‹كاسترُن›) و‹السورَيْن المحيطين› الداخلي والخارجي، إضافة إلى التنقيبات في مجمع سكني.

يأتي في المجلد الذي نضعه بين يدي القارئ استعراض اللقى السطحية للمستوطنة والتنقيبات في كل من الحصن ومجال ‹السورَيْن المحيطين›، في حين أن نتائج الحفريات في البيت السكني ستشكل بؤرة المجلد الثاني من المنشورات النهائية لتنقيبات الفريق الألماني. وفيما يلي نقدم نتائج الأبحاث التي جرت على المنشآت الدفاعية:

إن ‹السور المحيط› الداخلي المبني من حجر البازلت، والذي كان قد أزيل بشكل منتظم لمسافات كبيرة بعدما كان يحيط بمنطقة تغطي حوالي تسعين هكتارًا، أقدم من ‹السور المحيط› الخارجي الذي حُفظت آثاره على نحو أفضل بكثير وكان بنيانه خليطًا من اللبن وحجر البازلت ووُسعت بتشييده منطقة المستوطنة إلى مئة وخمسة وخمسين هكتارًا. وقد كُشف عن بوابتين في كل من ‹السورَيْن المحيطين› الداخلي والخارجي. هذا وترتبط بتأريخ ‹السورَيْن المحيطين› أسئلة أساسية حول الحالة في أندرونا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين. على العكس من ذلك فإن تأريخ الحصن يعود إلى ٥٥٨-٥٥٩ للميلاد ويدل على الوضع في سوريا خلال العقود ما بعد السيطرة على أنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد.

وقد أسس توما، الذي كانت تربطه بأندرونا علاقات وثيقة، الحصن العسكري والحمام العام أمام طرفه الغربي. ويمثل هذان البناءان ذوا الزينة الباذخة، اللذان طبعا إلى جانب كنيسة من نموذج البازيليكا ذات الأروقة المعمدة الواسعة وسط المستوطنة بطابعهما، شواهد معبرة عن الرفاه الذي ظهر في أندرونا إبان القرنين الخامس والسادس بالاعتماد على نظام ري مُمعَن في تخطيطه.

وشكل الحصن ببنائه المركزي الذي تبلغ مساحته ٥٦٥٥ مترًا مربعًا وتغطي مساحته الكاملة حوالي ٧٠٠٠ متر مربع ويصل مجمل ارتفاعه إلى حوالي ١٣ مترًا بناءً ضخمًا صاغ مع الكنيسة الرئيسية ومنشأة الحمام وسط المستوطنة بصيغته ويشير بتقنية بنائه إلى مدن سوريا الشمالية وتمتد جذوره في نفس الوقت إلى التقليد المعماري في سوريا المركزية. ولم تشمل أعمال التنقيب إلا جزءًا من البناء، إلا أنها استطاعت توضيح معالمه الرئيسية، حيث كشفت التنقيبات عن البوابة الغربية مع البرج الجنوبي من بين البرجين المجاورين لها، إضافة إلى ‹مسكن الطريق المنحدر› المتاخم، والدهليز الواسع الذي يربط ما بين باب المدخل من ناحية والفناء الداخلي و‹مسكن الطريق المنحدر› المتاخم جنوبًا من ناحية أخرى، كما أنه يصل ما بين القاعة الغربية الكبيرة والمرحاض المجاور لها جنوبًا ويربط القاعة الكبيرة على الجهة الجنوبية ببرج الركن الجنوبي الغربي المنفتح عليها، وأخيرًا وليس آخرًا ما بين قسم من الجناح

الشرقي مع البرج المتضمن لدرجه، وفي النهاية ما بين القسم الشمالي الشرقي من الجناح الشمالي والكنيسة في فناء الحصن.

ومع إضافة بعض الغرف الغنية بزخرفتها في الطابق العلوي تمت زيادة الطبيعة العسكرية للحصن بوظيفته كقلعة للملاذ من خلال هذه الغرف السكنية الخاصة. حيث أتاحت هذه الغرف في زمن السلم، كذلك في فترات الخطر، المكان اللازم لسكن مؤسس المعسكر توما وبعض سكان المستوطنة.

ومن الممكن القول إن الحصن يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمجمع المعماري المشهور المسمى بقصر ابن وردان من خلال تقنية بناء جدرانه وأشكال أقواسه وكذلك تجاور الزخرفة المعمارية المكونة من البازلت والحجر الكلسي والمرمر. فقد صاغ الاستيراد الكثيف لعناصر من الحجر الكلسي والمرمر من شمال سوريا وبلاد أخرى، ومن ثم تركيبها مع مواد محلية، الصورة العامة الفائقة بغنى الزخرفة للبناءين في أندرونا وقصر ابن وردان.

وتركز مناقشة الحالة التاريخية للأقاليم المركزية في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي في البحث على ما يبوح به البناءان في كل من أندرونا وقصر ابن وردان وكذلك على علاقتيهما مع الأبنية الرئيسية من القرن الخامس الميلادي في أندرونا.

وقد استخدم الحصن (‹كاسترُن›) مجددًا إبان بواكر العهد الأموي وهو قائم بما بقي من كيانه المعماري إلى جانب الحمام الأموي الذي شيد أمام جهته الغربية ويبقى كذلك المصدر الرئيسي لتاريخ أندرونا خلال عهدها الإسلامي، حتى ما بعد القرن الثامن الميلادي، بما أن استخدامه من جديد دام إلى زمن القرن الرابع عشر للميلاد على الأقل.

أتمنى أن تكون أعمال التوثيق المختلفة المقدمة هنا للحالة التي بقيت عليها الأبنية الرئيسية، وكذلك التنقيبات التي أجريت على المنشآت الدفاعية لأندرونا، قد وضعت أسسًا تستطيع الأبحاث المستقبلية الاعتماد عليها. وهنا أود التوجه بالشكر الجزيل إلى المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية (دمشق) ممثلة بالسادة الدكتور علي أبو عساف والدكتور سلطان محيسن والدكتور عبد الرزاق معاذ والدكتور بسام جاموس والدكتور ميشيل المقدسي، على مساندة الأعمال في الأندرين لسنوات طويلة.

هايدلبرغ، بتاريخ ١ أيار/ مايو ٢٠١٤